في القصص العربي الحديث

بقلم وداد سكاكيني

بين يدي اخر ماظهر من قصص عربية حديثة ، تناولت منها كتابين للكلام عليهما ، وهما يمثلان طرفي نقيض او ضدين لايلتقيان الا بمقدار ضئيل ، ولا ينطبق عليهما القول : والضد يظهر حسنه الضد .

لقد تمثل في الكتابين القديم والحديث في القصة وموضوعها ، وأسلوب التعبير فيها ، والقديم قدمه قصصي كبير هو الاستاذ محمود تيمور باخر انتاجه وهو « المصابيح الزرق » والحديث طلع به علينا هذا الاسبوع قصصي موهوب هو الطبيب يوسف ادريس باخر مانشر مجموعا من اقاصيصه ، تحت عنوان السادسة منها وهو « اخر الدنيا » .

« فالمصابيح الزرق » جعلها تيمور رمزا للفوانيس المطلية بالزرقة ايام الحرب العالمية الاولى ، ولا ندري هل كان هذا الطلاء من تقاليد تلك الايام ؟ فاننا لم نعرفه الا منذ الحرب العالمية الثانية ، وكان مدار القصة على فتى يلهو على شاطيء الاسكندرية في تضاعيف ذلك الظلام الذي كان يعم المدينة ، حتى تعلق هذا الفتى بضائدة من بنات الهوى كان يلقاها في الليل بمنزلها بغيا لعوبا باسم نواعم ، ويراها في بيتها الثاني اما حنونا باسم بهية ، فكانت ذات شخصيتين ، واحدة تسيطر عليها الامومة المفدية ، والثانية وسيلة الى الاولى على مافيها من تبذل وفجور اذ كانت تضم وحيدها « وفيق » وتنفق عليه من ثمن مآثمها ، وقد نشأ الولد مع لداته يلعب في الشارع ويشاركهم في اهازيجهم الوطنية حتى خرجوا في مظاهرة ثائرة ، اجتذبت اليها اعين الاعداء من المستعمرين ، وكان هذا الصبي يمسك بيده علم الحرية والاستقلال ، خافقا مع النفوس المهتاجة ، وكانت كتيبة عسكرية للعدو الغاشم تطوف بالشوارع ، فانبرت للمظاهرة بالرصاص واصابت وحيد امه الآثمة ذات الشخصيتين ، فوقع الولد صريعا بيد ظالم ممن كانوا يفجرون عندها ويعربدون ، واذ بهذه الام تصبح بعد هذه الفجيعة كالضائعة لكنها تلتمس الانفلات منها فيقترح عليها فتاها « بطل القصة » ان تتماسك لتستطيع ان تمجد ذكرى الشهيد .

ولا يجد لها الفتى المولع بها افضل من الحياكة مهنة لها ، تشغل بالها ووقتها ، على ان الحياكة كما نعرف هي صنعة النسيج ، ولعل القصصي اللغوي اراد بها الخياطة ، وقد دعا الفتى المراة الثكلى لانشاء مشغل للصبايا واستغلاله للوطنية والكسب .

ومن العجب ان تبدو ذات الشخصيتين بعد حين في شخصية ثالثة وان تختار لها اسم اشجان ، وكان الاكثر عجبا ان تغدو بعد قليل قادرة على ان تقيم حفلا لافتتاح المشغل متناسية حقيقتها وان تلقي فيه ابياتا من الشعر رائعة ، وماذا على القصصي الكبير لو جعل شيطان الشعر يهبط على بطلة قصته فتصبح بين عشية وضحاها شاعرة ، ولا تلبث هذه المراة التي تغيرت بسرعة ، ان تسقط شهيدة في مظاهرة وطنية ، فيكتب لها المصير الذي كتب لابنها البريء .

فاذا تجاوزت في هذا التلخيص الوجيز عن الحشو والاستطراد ، لم اجد في هذه القصة المصطنعة الا تكلفا وتمويها في الموضوع والاداء الذي طغى فيه التصنع ، وادخل الضيم على فنه مما لايصلح للتعبير في القصة الحديثة ، مهما قسونا في التزام السليم من اللفظ والمعنى ، ففي صفحات من الكتاب كلمات مشكولة نابية عن النطق بها امثال : فأجابه في هيجة ، تدامجا دون انفصام ، تخاجلا ، النشرات « بضم النون والشين » ، المقاذر ، وغيرها .

ولم يسلم التعبير على دقته في اللغة المعجمية وتوقيه من العثار عن الخطأ بكلمات : لاينم عن ، وحماس ، وانسام وتعاسة الحرمان وسواها ، مما يخالف الصواب .

وبعد فان « المصابيح الزرق » لم تستهوني بفحواها ومبناها ، وانما رايتها الدليل الحاسم على الاسباب التي يضج منها ادباء الشباب ، وقد شدني اليها العنوان ، فما تزال بخاطري صور من الرواية التي كتبها القصصي حنا مينا بالعنوان نفسه « المصابيح الزرق » معبرا بفكرتها وسياق الفن فيها ، عن جوانب قاتمة في حياة بعض الكادحين على الشاطىء السوري ايام الحرب العالمية الثانية وقد نشرها كاتبها منذ بضع سنوات .

فهل كان من قبيل توارد الخواطر ان يسمي الاستاذ محمود تيمور قصته الاخيرة بهذا الاسم ، وان يجعلها اقرب الى ماصنع الاديب حنا مينا ؟.

هذه اسئلة ستتاح لي العودة اليها بالاجابة في خطرات قريبة ، اتناول فيها حكاية التكرار في العنوان والموضوع ، وان قال القدامى بان المعاني والاسماء مطروحة مبذولة ، لكن الابداع والنبوغ هو في اسلوب التعبير وتناول الفكرة والقاء النور عليها .

اما الضد الاخر « للمصابيح الزرق » فيتجلى بالاقاصيص التي قدمها الدكتور يوسف ادريس في كتابه « اخر الدنيا » غير ان كلامي في هذا المقال هو على ابرز تسمية في المجموعة « الشيخ شيخه » وملخص الاقصوصة ان معتوها في القرية حار الناس في حقيقته ، هل هو رجل فيحسب على الرجال ، ولا يحمل ملامحهم ، او امراة فتنضم الى النساء ، ولم تر فيها علامة انوثة ، فان الهيكل الجثماني

لهذا المعتوه او « الشيخ شيخة » يختلف عن سواد البشر، وقد عود رقبته الانحناء حتى جمدت مكانها كما يجمد غصن شجرة منعطف ، فهو يندس في البيوت ولا حرج عليه ، ويتسلل الى مجالس الرجال ، ويراهم في العرايا من كل مايسترهم ويحفظ عليهم الشخصية والكرامة ، حتى جاء القصصي « بنعسة » العرجاء التي كانت تعطف على المعتوه عطفا كثر حوله التعليل والتأويل ، فمن زاعم بانها امه وقد اخطأت فيه ، ومن هامس بانه غير ذلك ، ثم يفجأ القصصي ادريس قراءه بما يطور القصة ويعطيها فنها المطلوب على سجيته دون تكلف او معاناة لفظية .

لقد ظهرت في هذه المجموعة الاضداد بينها وبين القصة التيمورية في لغة التعبير وتناول الفكرة ، والسرد الفني في تصوير الشخصيات ، وانتقال المشاهد ولم تلتق المجموعتان الا في مورد واحد هو الاداء السطحي الذي طفا كالخشب على الماء دون ان يمس الاعماق .

على ان هذا الاداء عند ادريس كان على السليقة ومطاوعة الطبع ، سائغ اللفظ خفيف الظل، جامعا بين العامية والسليمة السهلة سواء كان الكلام على لسان القصصي ادريس او بلهجة الحوار ، وكان بوسعه وذوقه الفني ان يصون تعبيره عن الركاكة والسطحية ، فالمطلوب من القصصي المثقف ان يحسن لغة الاداء وان ينزل الى السوق والشارع لا ليقرأ فيه ، او يعرض الخفيف من بضاعته ، وانما ليرفع القاريء اليه بلباقته وسحر فنه ، اما الذي يحبب بقراءة القصة الادريسية كما كان يحبب بقراءة القصة التيمورية فهو الموهبة الاصيلة والحاسة المتجاوبة التي تدور في افقها القصة ، ثم التجافي عن التكلف والتزويق في تصوير الحوادث والوجود .

والظاهر ان الدكتور يوسف ادريس يؤثر اكبر عدد من القراء ولو كانوا في صفوف العامة او الذين يفكون الحروف ، وبهذا بعدت المسافة بين تيمور الذي يجلس على كرسي المجمع وبين ادريس الذي يقعد في قصصه وحياته على كرسي متواضع في عيادته او في قهوة شعبية وقلبه طواف في صميم المجتمع ، وفنه مشدود الى صوره في عاهاته وهمومه

هذان نموذجان للقصة العربية الحديثة على طرفي نقيض في الطريقة والمراس وفي التعبير والهدف ، فاين نجد الحد الوسط بين ضدين لايلتقيان الا بمقدار؟ الم تكن الضجة حول القصة من جراء هذا التباعد الذي تفاوتت فيه الاذواق والثقافات ، بتفاوت المقاييس والزمن والمواهب التي لاتنمو الا بالدأب والاطلاع والتمرس بالتجارب الفنية. والحياة الفكرية والاجتماعية .

ولن أزعم بان هذا الحد الوسط مفقود او مجحود ، فان القصة الفنية المثقفة التي تدانت من التكامل والاتقان في ادبنا الحديث قد وجدت سبيلها الى النفوس والعقول ،وان يكن كتابها وكاتباتها قلة معدودة بين كثرة لايحصى لها عد من المتعجلين والمستهينين بثقافة القصة واداة التعبير فيها والموهبة المصقولة .

فاذا اتسع التناقض الفني واللغوي بين الطرفين المتباعدين من ادباء القصة اليوم ، فان الحد الوسط كما كان في كل زمان ومكان هو المثال المرجو للقصة العربية الحديثة .

وداد سكاكيني

صدر خلال شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٦١

من دار الثقافة بيروت

بثمن ق.ل

١٠٠٠	* اساس التأويل - للنعمان بن حيون التميمي المغربي - تحقيق : عارف تامر
٢٠٠	* أسرار الفضاء - ترجمة : عاطف كرم
٢٠٠	* مقالات في الادب والنقد - الدكتور محمد النمرة
٥٠٠	* قصة قلب (ديوان شعر) محمد احمد محجوب
٣٠٠	* ديوان الرصافي البلنسي تحقيق ومراجعة : الدكتور احسان عباس
٢٠٠	* أوراق جريحة - الياس الفاضل
٤٠٠	* ديوان القطامي - مراجعة وتحقيق : الدكتور ابراهيم السمرائي واحمد مطلوب
٤٠٠	* عامان (قصة) الدكتور جورج حنا
٣٠٠	* شعر الخليع - الحسين بن الخليع - تحقيق : عبدالستار الفراج
٥٠٠	* كتاب ضالة المنشاة اشتمل على ادبية بما اشتهر لها من اشعار العرب تأليف : اليمني تحقيق : الدكتور محمد يوسف نجم
٤٠٠	* مجدرون ومجدرون (طبعة ثانية مزيدة) مارون عبود
٣٠٠	* من الادب المسرحي في العصور القديمة والوسطى - الدكتور محمد كامل حسين
٥٠٠	* ابن الرومي - تأليف : رومن جست ترجمة : الدكتور حسين نصار
٣٥٠	* لنسكن هذا الوادي - ترجمة : بولس الشرتوني
٣٠٠	* موجز تاريخ الولايات المتحدة - ترجمة : مهيبة مالكي الدسوقي .

تطلب هذه الكتب وسواها من منشورات دار الثقافة ومن عموم المنشورات من دار الثقافة ومكتبتها - تلفون : ٢٣٥٦١ ص.ب ٥٤٣ بيروت